الفصل الثانى

السعادة في الكتاب والسنة

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل الثانى

السعادة في الكتاب والسنة

قد يتساءل القارئ عن أهمية هذا الفصل من البحث قائلاً : هل يمكن قيام فلسفة أخلاقية ، اعتمادا على نصوص الكتب المقدسة ؟ أو هل يمكن إقامة فلسفة أخلاقية ما اعتماداً على التعاليم الدينية ، وقد يكون في ذهن السائل ذلك التعارض الشائع بين الدين والفلسفة ؟ وبالرغم من أننا نعتقد أن الواقع يقرر وجود أو إمكانية ذلك في التعاليم الإسلامية بالذات لما أفسحه الكتاب والسنة من مجال للعقل ، وما أولياه له من تقدير متميزين بذلك عن التعاليم الدينية الأخرى ، بما جاءت به من دجماطيقية معتمدة على الوحى ، لا تعطى فرصة للعقل أو الفلسفة ، أقول : بالرغم من ذلك فإننى لم أقصد بهذا الفصل إقامة أو استنباط مذهب فلسفى من الكتاب والسنة ، ولكن فقط أردت به أن نضع أيدينا على الأصول الأخلاقية التى أقرتها العقيدة الإسلامية ، ثم جاء المفكرون الاسلاميون بعد ذلك فأخذوا منها ما أقاموا عليه مذاهبهم وفلسفاتهم الأخلاقية بعد أن أضافوا عليها ما أضافوا من صنعة فنية ، وصياغة فلسفية ، الأمر الذى يمكننا بعد ذلك ، ونحن بصدد قراءة الفلسفة الأخلاقية الإسلامية أن نردها بسهولة إلى أصلها في الاسلام ، ونكون بذلك كمن يرد الفرع إلى الأصل .

وفى هذا الإطار كان هذا الفصل ، نصور فيه وجهة نظر الكتاب والسنة في موضوع السعادة ، من حيث مفهومها ، والوسيلة إليها ، والدرجات التى تتضمنها .

مفهوم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة :

إذا بحثنا في آيات القرآن الكريم عن لفظ " السعادة " أو مشتقاته نجده قد ورد مرتين ، احداهما في قوله تعالى : " يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد " (١) والأخرى في قوله جل وعلا : " وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض " (٢) . وبالنظر في هذين الموضعين حيث ورد لفظا السعادة نجد أنه في الموضع الأول جاء لفظ " سعيد " محددا إحدى الصفتين اللتين وصف بهما القرآن الناس في الحياة الأخرى ، وهم السعداء في مقابل الأشقياء . ولكنه في الموضع الثانى جاء اللفظ " سعدوا " محددا من هم السعداء ؟ بأنهم الخالدون في الجنة ، فى مقابل الأشقياء الخالدين في النار ، إذ يقول سبحانه وفى نفس الموضع : " فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض " (٣) . ويهمنا في هذا المجال لفظ السعادة " سعدوا " الذين ورد في الموضع الثانى ، لأنه يحدد كما سبق أن قلنا من هم هؤلاء الذين " سعدوا " كما أنه يقودنا إلى استنتاج الدلالة الأخلاقية للسعادة موضوع حديثنا لأنه في مواضع عديدة أخرى يحدد لنا من هم الذين سيسعدوا بدخول الجنة ، جزاء على ما اكتسبوه من فضائل ، ونجد ذلك في نحو قوله تعالى : " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .... " (٤) .

---

(١) هو : ١٠٥ .
(٢) هود : ١٠٨ .
(٣) هود : ١٠٦ – ١٠٧ .
(٤) البقرة : ٢٥ .

إذا فالذين سيسعدون بدخول الجنة هم أولئك الذين وصفهم القرآن بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات وفي القرآن ارتباط وثيق بين الإيمان وبين عمل الصالحات . ويتضح لنا ذلك جليا إذا ما عرفنا أن الإيمان فى الإسلام كما عرفه الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو " أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره " (١) ، كما أن الإيمان كما عرفناه من كتب العقائد هو ما " وقر في القلب وصدقه العمل " ، والمقصود بالطبع هنا العمل الصالح ، الموافق لما أقره القلب وحدده الرسول في تحديده للإيمان كما علمه إياه رب العزة ، ومن ذلك قيل من واقع ما ورد في القرآن الكريم : أن كلمة " الإيمان " ترتبط " بالصالحات " إلى حد أن لا تذكر إحداهما إلا والأخرى معها ، ضمنا أو صراحة ، كما أنه قد تحدد " الصالحات " بالإيمان ، كما يحدد الإيمان بعمل الصالحات ، هذا فضلا عن أننا نجد القرآن يربط بين الصلاح وبين الفضائل الأخلاقية فضلا عن ربطه بينه وبين الطقوس الدينية ، كما أنه يربط بينه وبين " البر " و " التقوى " و " القسط " وكلها أمهات للفضائل الأخلاقية في الاسلام (٢) . الأمر الذى نخلص منه إلى أن السعادة المحددة بالخلود في الجنة في القرآن الكريم وارتباطها بعمل الفضائل الأخلاقية ، هى ما تعنيه فكرة السعادة في الكتاب والسنة .

ولكن ما هى طبيعة هذه السعادة ؟ أو بعبارة أخرى ما هى طبيعة هذه السعادة ؟ أو بعبارة أخرى ما هى طبيعة الحياة في الجنة التى سيفوز بها السعداء في الحياة الآخرة ؟ ولا شك أن الخوض في هذا

---

(١) الأربعين النووية ص ١٤ .

(2) Toshihiko Izutsu : the structure of Ethical terms in the Koran , Tokyo , 1959. P 210 .

obeikandl.com

الموضوع يعتبر مخاطرة ، وذلك لاعتبار أن الإيمان بالجنه أو كنه الحياة الآخرة هو من قبيل ما أسماه علماء الكلام بالسمعيات التى ينبغى على المسلم أن يؤمن بها سمعا عن الكتاب أو سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، وعن إمكانية إدراك أو تصور كنه السعادة الآخروية ذهب الراغب الأصفهانى في بداية الأمر إلى أنه " ليس لنا تصور كنهها ما دمنا في دار الدنيا " وبرر قصورنا عن هذا التصور بأمرين : أحدهما ان الإنسان لا يمكن أن يعرف حقيقة الشئ وتصوره حتى يدركه بنفسه وإذا لم يدركه ووصف له فموقفه في هذا شبيه بموقف الصبى حينما توصف له إحدى اللذات التى لا يتمتع بها إلا الكبار ، فيظل جاهلا بحقيقة هذه اللذة إلى أن يبلغ مدارك الرجال فيباشرها بنفسه ، وهذا هو حال الإنسان بالنسبة للسعادة الأخروية ، لا يتصورها على الحقيقة إلا إذا طالعها . وثانيهما أن لكل قوة من قوى النفس وكل جزء من أجزاء البدن لذة يختص بها ويدركها ، وإذا ما عرض لأى من هذه القوى أو الأجزاء آفة عاقتها عن إدراك لذتها ، والسعادة الأخروية لا تدرك إلا بالعقل المحض ، وعقول الناس في هذه الدنيا مشغولة مولهة وبالتالى معوقة عن إدراك حقائق اللذات الأخروية فعقول أكثر الناس ناقصة جارية مجرى عقول الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال الذين عرفوا حقائق الأشياء ، فكما أن الصبيان ما داموا صغارا لا يحسون باللذات والآلام التى تعرض للرجال فيتعللون بالأباطيل والأضاليل ، فكذلك من كان عقله صبيا . وبعد ذلك انتهى الراغب الأصفهانى إلى قوله : " فالإنسان وإن اجتهد أن يطلع على تلك السعادة ، فلا سبيل له إليها إلا على أحد وجهين : أحدهما أن يفارق هذا الهيكل ويخلف وراءه هذا المنزل فيطلع على ذلك .. والثانى أن يزيل قبل المفارقة الهيكل الأمراض النفسانية المشار إليها (في القرآن الكريم) فيطلع من وراء ستر رقيق

على بعض ما أعد له كما حكى عن حارثه حيث قال النبى – صلى الله عليه وسلم - : عزفت نفسى عن الدنيا فكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا وأطلع على أهل الجنة يتزاورون وعلى أهل النار يتعاوون ، فقال له النبى – صلى الله عليه وسلم - : " عرفت فالزم " وقال أمير المؤمنين على عليه السلام : " لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا " (١) .

ولكن بالرغم مما ذكره الأصفهانى في آخر قوله من إمكانية الاطلاع على السعادة الأخروية ، فإن الصعوبة ما زالت قائمة ، وكأن هذه الإمكانية غير ميسرة ، وذلك لأننا نحاول تصويرها ونحن لم نفارق الدنيا بعد كما أن الإمكانية على الوجه الثانى قاصرة – كما قال الأصفهانى – على الخاصة ، أو خاصة الخاصة من الناس ، وهذا أيضا لا يمكن لعامة البشر أن يدعوه لأنفسهم ، ومن ثم فلا مناص لنا إذا أردنا أن نصور كنه السعادة الأخروية ، وهى السعادة الحقيقية ، طبقا لما جاء في الكتاب والسنة ، من أن نعتمد على ما وجد من وصف لها في الكتاب والسنة ، وقد وجدناها على النحو التالى :

أولا : الصورة الحسية للسعادة الأخروية :

وفى هذه الصورة الحسية قدم القرآن الكريم وصفا رائعا ومشوقا للجنة ، تضمن كل أنواع اللذات الحسية من مسكن ومشرب ومأكل فضلا عن اللذات التى تشير إلى المتعة الزوجية ، فصورها على أنها مكان فسيح يضمن للإنسان أن يتحرك فيه بحريته متمتعا برحابة المكان واتساعه ، فضلا عن تميزه بجو ممتع لا هو بالحار ولا هو بالبارد ، لا شمس فيه ولا زمهرير فضلا عن اشتماله على الظلال الوارفة ، وللإنسان فيه مساكن طيبة معدة اعدادا طيبا ، كما أنه قد صورها على أنها تشتمل على كل لذات المأكل والمشرب ، ففيها أنهار من ماء

(١) الراغب الأصفهانى : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص٥٧ – ٥٨ .

غير آسن ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من لبن وأخرى من عسل مصفى ، وكذلك تشتمل على كل ما لذ وطاب من أنواع المأكل ، ففيها فاكهة ولحم ، يقدم فيها الخدم كل هذا في آنية وأكواب من فضة . وقد اشتملت السعادة الأخروية في الجنة أيضا على استمتاع أصحابها بأزواج مطهرة ، وصفن بأنهن حور مقصورات في الخيام ، خيرات حسان ، لم يطمثهن من قبل أنس ولا جان ، كما وصفن بأنهن أبكار عرب وأتراب ، كما أنهن قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون ، ولم يقتصر القرآن الكريم على هذا الوصف الشامل لكل لذات الجنة الحسية ، بل وعد الإنسان فيها بكل ما يطلب من غير ذلك من اللذات .

وعلى عكس هذا تماما كان تصوير القرآن الكريم للشقاوة بمعناها المادى والحسى التى يتردى فيها الأشقياء الكافرين والمخطئون في جهنم في الحياة الآخرة ، جزاء ما اقترفوا من أفعال فى الحياة الدنيا ، فهم محصورون فيها عليهم زبانية غلاظ شداد ، ومثلها بالنسبة لهم كمثل الحفرة من النار ، يكونون فيها مقيدين في الأصفاد ، مغلولة أعناقهم وأقدامهم ، ملقون على وجوههم عميا بكما صما ، يحيط بهم جو من سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم . وشرابهم فيها من ماء يغلى كالمهل يشوى الوجوه ، ويقطع الأمعاء ، وهو مثل الصديد يتجرعه الكافر ولا تستسيغه النفس ، أما طعامهم فأشد قسوة وفظاعة من شرابهم ، فهو من شجرة الزقوم ، وقيل أنها من أخبث الشجر المر ، نبتت في جهنم غذاء للأشقياء .

هكذا كان التصوير القرآنى ، والذى لم تخرج عنه السنة ، للسعادة أو الشقاوة الأخروية ، بالمعنى الحسى والمادى ، وحول هذا التصوير أثيرت مجموعة من الأمور ، منها مااستهدف الانقاص من قيمة

النظام الإسلامى ، ومحاولة التهجم عليه ، بقيام بعض المغرضين بتضليل الكثير من العقول في شتى الأقطار بزعمهم أن الخطاب بالمحسوسات في أمر اللجنة والنار مقصور على العقيدة الإسلامية ، وأن المؤمنين بالدين لا يؤمنون بالنعيم المحسوس إلا إذا كانوا من المؤمنين بالقرآن (١) . الأمر الذى دعا الأستاذ العقاد – رحمه الله – إلى الرد عليهم بأن ذلك وإن وجد في القرآن فهو لم يكن قاصرا على الدين الإسلامى وحده ، ودلل على ذالك بأن ساق الكثيرمن النصوص من الكتب المقدسة غير القرآن ، مثلما نقله عن الاصحاح الخامس والعشرين من سفر أشعياء من العهد القديم ، وعن الاصحاح العشرين والحادى والعشرين من العهد الجديد ، تلك النصوص التى تضمنت صراحة الإشارة إلى السعادات الحسية التى يتمتع بها الأنباء والقديسون رضوان الله تعالى عليهم ، في الحياة الآخرة (٢) .

وإستخدام الدين للسعادة والشقاوة الحسية أمر ضرورى وذلك لكون الدين ليس فلسفة يعنى بها الخاصة ، أو توجه إلى الخاصة من الناس ، بل هو دائما يخاطب الناس جميعاً ، على تفاوت ادراكهم وتفكيرهم ، على اعتبار أن منهم من لا يمكن توجيهه إلا بما هو محسوس ومادى ، وقد أدرك الأصفهانى ذلك المعنى حينما أشار إلى أن الشهوة بالرغم مما فيها من مضرة ، لكنها تفيد في حين آخر ، عندما تدفع عامة الناس إلى تقوى الله بسبب إثارة شوقهم إلى ما في الجنة من ملذات حسية مادية من نحو لذات المأكل والمشرب والمنكح " إذ ليس كل الناس يعرف اللذات المعقولة " (٣) .

---

(١) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٩٥٧ ، ص٢٩٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٩٠ – ٢٩١ .
(٣) الراغب الأصفهانى : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٣٠ .

كما أنه بهذا الاعتبار رد أحد الباحثين على الزعم نفسه الذى رد علي الأستاذ العقاد من قبل ، فذهب إلى أن التصوير الحسى للسعادة الأخروية إمكانية أودعها الله في جميع الأديان ، وقد أدرك نبى الإسلام – صلى الله عليه وسلم – قيمة هذه الإمكانية فأبرزها من أجل مخاطبة العامة من الناس وذلك لأن " الرسول صلوات الله وسلامه عليه لا يخاطب ذلك العدد القليل من المفكرين المثاليين الذين اتفق وجودهم في عصره فحسب ، بل كان يخاطب كذلك العالم العريض المحيط به ، الغارق في بحر المادة على اختلاف ألوانها ، وكان عليه أن يخاطب الناس على قدر عقولهم . وأى شئ هو أحب إلى نفس البدوى الجائع الهمجى أو أكثر تمشيا مع تصوره للجنة من أن توصف له بأنها ذات أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من عسل مصفى ، وأى شئ هو أقرب من نفسه من وصفها بأنها تشتمل على فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة !! إنه لم يكن في وسعه أن يتصور نعمة تخرج عن دائرة هذه اللذات الحسية " (١) وبعد أن يستعرض الباحث الآراء المختلفة التى دارت حول هذا الموضوع ينتهى إلى تأكيد هذه الإمكانية الموجودة في الدين الاسلامى ، ومحاولة استغلالها مع التقدم إلى ما هو أسمى فى السعادة الأخروية ، فى جانبها الروحى والمعنوى ، وذلك مع تطور الدعوة ، وتقبل الناس وتفهمهم للمعانى الروحية ، وهو يؤكد ذلك من خلال تتبعه للسور القرآنية ، حيث نرى معه أن الآيات التى نزلت في وصف السعادة الأخروية بصفات حسية قد نزلت كلها أو معظمها مع بداية الاسلام في مكة ، ومع تطور الأمر بالمسلمين واشتداد ساعدهم ، نزلت الآيات

---

(1) Ameer Ali Sayed : The Spirit of Islam ,
الترجمة العربية للسيد / أمين محمود الشريف ص ٧٢ .

obeikandl.com

الأخرى التى مزجت في وصف السعادة الأخروية بين الصورة الحسية والصورة الروحية ، أو ركزت على وصفها في صورة روحية خالصة ([1]) .

وهذا ما سنأتى إلى تفصيله عند الحديث عن الصورة الروحية للسعادة الأخروية ، ولكننا قبل أن نترك الحديث عن هذه الصورة الحسية التى وردت في القرآن ، للسعادة في الجنة ، وختاما لما أثير حولها من أمور نود أن نعرض أيضا لأمر آخر ، وهو أن هذه الصورة الحسية ، وأن اتخذت لها مسميات محددة مألوفة في الحياة الدنيا ، وربما كان القصد منها مساعدة الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم ، وكذلك الدعاة إلى العقيدة والأخلاق الإسلاميين ، بالتأثير بها على نفوس العامة من الناس بقصد هدايتهم ، وذلك إدراكا من المشرع سبحانه وتعالى أن السعادة الحسية هى المدخل الوحيد الذى يمكن أن يدخل به ومنه الرسول أو الداعية إلى نفوس العوام من الناس . ولكن بالرغم من ذلك ومع شئ من التأمل والنظر في هذه الصورة الحسية ، يمكن للمرء أن يرى فيها لونا آخر مخالفا لما هو مألوف ، نرى ذلك مثلا في الربط الذى ورد في القرآن بين الجنة وما يجرى تحتها من أنهار ، وكلنا يعلم ما يثيره جريان الماء من بهجة وسعادة نفسية روحية بعيدة عن اللذات المادية ، فضلا عن الربط بين ذلك وبين نزع الغل من الصدور ، يقول تعالى واصفا حال أهل الجنة : " ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار " ([2]) ، كما أننا إذا تأملنا صورة أخرى من مجموع اللذات الحسية وهى صورة شراب أهل الجنة ، وإن اتخذ نفس المسميات المألوفة لأهل الدنيا مثل : الماء ، اللبن ، الخمر ، والعسل إلا أن الله سبحانه وتعالى قد أضفى عليه من الصفات التى تميزه عن مجموع ذلك الشراب

([1]) المصدر السابق ص٧٤ – ٧٥ .
([2]) الأعراف : ٤٣ .

المعهود في الدنيا ، فهو سبحانه ينفى عنه صفة الاغتيال التى تتصف بها عادة المشروبات المعروفة في الدنيا كما أنه شراب طاهر ، لا تغشى لذته على العقل ، ولا يصيب شاربه منه صداع ولا وصب ، ولن تصحبه ثرثرة ولا كذب ، كما أنها لا يؤدى بشاربه إلى ارتكاب الأثم . وكذلك إذا استعرضنا حديث أزواج أهل الجنة ، نجد أن القرآن لم يشر أبدا إلى معاشرة الرجال للنساء في الجنة ، ولكنه يركز على الصحبة الجميلة ، وعلى وصفهن بأنهن دائما أبكار جميلات ، طاهرات ، خيرات ، حبيبات ، حياتهن مع أزواجهن حياة حب متبادل ، وشباب دائم ، الأمر الذى يمكن أن ننتهى معه إلى أن المتعة بهن جد مختلفة عن تلك التى يعايشها الإنسان بالصورة المادية الموجودة في الحياة الدنيا ، مما جعل ابن عباس – وهو من أصوب المفسرين رأيابين صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " ليس في الدنيا من الجنة شئ إلا الأسماء " (١) .

ثانيا : الصورة الروحية للسعادة الأخروية :

أما الصورة الروحية للسعادة الأخروية التى صورها الكتاب والسنة ، والتى يعدها الكثيرون السعادة الحقيقية على ضوء ما أثير من أمور حول الصورة المادية الحسية التى سبق عرضها ، فقد جاءت تصف حال السعداء في الجنة على نحو سلبى مرة بمعنى أنهم يكونون في حالة خالية تماما من الخوف والحزن والخزى ، وعلى نحو إيجابى مرة أخرى ، وبشكل أكثر تفصيلاً وتنويعا ، فتصف حياتهم بأنها تتميز بالأخوة والمحبة المتبادلة بينهم ، حيث لا غل ولا حسد ولا لغو ولا تأثيم ، يعيش أصحابها في حبور واستبشار دائم ، ضاحكة وجوههم مستبشرة ، يشعرون بأنهم في رفعة ومقام محمود ، مستمتعين بلذة الفوز والتفوق على من لم يسلكوا طريقهم في الحياة الدنيا من الكفار ، كما أنهم

---

(١) أنظر دكتور محمد عبد الله دراز ، دستور الأخلاق في القرآن ص٣٨٣ – ٣٨٧ .

ينعمون بصحبة الصفوة من الخلق من الأنبياء والشهداء والصالحين ، فضلا عن صحبتهم لمن آمن من أهلهم ، آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، كما يسعدون كذلك باستقبال وتحية الملائكة لهم عند دخولهم الجنة.

هكذا نرى عناصر جديدة تتكون منها السعادة الأخروية ، بعيدة عن التصوير المادى والحسى ، بل كلها عناصر معنوية روحية ، إلى أن يصل بنا القرآن إلى قمة السعادة الروحية التى يعد بها الله سبحانه وتعالى أهل الجنة في الآخرة ، وهى قربهم منه سبحانه ، ونظرهم إلى وجهه الكريم : ونوالهم لمغفرته ورضوانه .

وإذا كانت السعادة الزوحية قد اعتبرت في درجة أعلى من السعادة الحسية ، فضلا عن اعتبار البعض لها أنها السعادة الحقيقية ، فإن رضوان الله سبحانه وتعالى قد اعتبر قمة السعادة الروحية ، ولذلك نجد الطبرى في تفسيره لقوله تعالى : " قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد " (١) ، يقول : أن " رضوانه أعلى منازل أهل الجنة " (٢) كما يروى الإمام البخارى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك . فيقولون : يارب ، وأى شئ أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا " (٣) كما يروى صاحب " الكشاف " حديثا لرسول الله –

---

(١) آل عمران : ١٥ .
(٢) تفسير الطبرى – دار المعارف بمصر – المجلد ٦ ص ٢٦٢ .
(٣) صحيح البخارى ، باب كلام الرب مع أهل الجنة ، طبعة الشعب جـ٩ ص ١٨٤ – ١٨٥ .

صلى الله عليه وسلم - ، مؤداه كشف الحجاب عن أهل الجنة ليروا وجه الله سبحانه وتعالى ، كأحب شئ لديهم ، وينص الحديث على أنه " إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة ، فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم منه " (١) .

ويقابل هذه الصورة الروحية للسعادة الأخروية صورة للشقاوة الروحية أشد قسوة وعنفا من الشقاوة الحسية التى سبق ذكرها ، يعانى فيها أهل الشقاوة من حياة مليئة باليأس من رحمة الله ، والحرمان من مغفرته وهدايته ، حياة كلها شعور بالخذلان والنسيان ، فهم لا مولى لهم ولا نصير ، ولا تفتح لهم أبواب السماء ، كما لا يقبل منهم دفاع عن أنفسهم ، حياة يملأها الأخفاق والخسران ، وفوق ذلك كله هم فى خصومة مع الله تعالى ، لا يكلمهم ولا يزكيهم ، بل هم محجوبون عن رؤية الله سبحانه وتعالى (٢) .

هذه هى السعادة الأخروية بصورتيها الحسية والروحية أو المعنوية ، والتى تعتبر في الأخلاق الإسلامية السعادة الحقيقية أو المطلقة ، يقول الأصفهانى : " وأما السعادة المطلقة فحسن الحياة في الآخرة ، ويضادها الشقاوة " (٣) . وهى ما يقابل السعادة القصوى أو السعادة الحقيقية عند مفكرى الأخلاق الإسلاميين بعد ذلك من صوفية وفلاسفة تحت اسم السعادة العقلية أو السعادة الروحية على اعتبار أنها السعادة القصوى في مقابل السعادة الدنيا التى تمثلوها تارة في " السعادة الدنيوية " وتارة أخرى في " السعادة الحسية " .

---

(١) الزمخشرى (أبو القاسم جار الله) : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل جـ٢ ص٢٣٤ – وقد علق صاحب " الانصاف " على الحديث بأنه مدون في الصحاح متفق على صحته (أنظر أسفل ص٢٣٤ السابقة) .

(٢) دكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ص٣٨٨ وما بعدها .

(٣) الراغب الأصفهانى : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص٣٧ ، وتفصيل النشأتين ص٥٥ وما بعدها .

السعادة والشقاوة الدنيوية :

قد ورد في القرآن من الآيات ما تضمن الكثير من المتع في الحياة الدنيا المادية الحسية ، والمعنوية الروحية من نحو قوله تعالى فى شأن المتع الحسية : " يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ... " (١) وقد فسر المفسرون الطيبات على أنها طيبات المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك من الماديات ، كما قال تعالى : " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " (٢) ، وهما أيضا من نعم الله سبحانه على الإنسان في الدنيا ، كما قال تعالى : " ومن آياته خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون " (٣) ، وهى أيضا متعة حسية من المتع التى يسعد بها الإنسان إرضاء لغريزة الجنس في الحياة الدنيا ، وقد أقام المفكرون المسلمون على هذه الآيات وغيرها من الآيات الأخر نظريات فى السعداة الدنيوية ، واتخذ منها الدعاة والوعائظ أداة للدعوة إلى الدين ، ولكننا إذا ما تأملنا هذه الآيات من الناحية الأخلاقية لا نجد فيها ما نستطيع أن نسميه دلالة أخلاقية ، على أساس أن هذه السعادة هى الغاية التى يمكن أن ينشدها الإنسان المسلم من سلوكه الأخلاقى ، ولكنها تشير إلى فضل الله وكرمه على عبادة في الحياة الدنيا ، الذى يطالبهم من ورائه بعبادته التى تظهر سلوكهم ، والتى خلقهم من أجل " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " ، بعد ذلك تظهر الغاية ، أو الجزاء والذى لن يكون إلا في الآخرة ، أن سعادة أو شقاء . ويتأكد هذا بالقرآن أيضا ، إذ يقول تعالى

---

(١) المائدة : ٨٧ .
(٢) الكهف : ٤٦ .
(٣) الروم : ٢١ .

: " قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة [1] وقد جاء في تفسيرها أن الله سبحانه وتعالى بعد أن ينكر القول بتحريم الطيبات من الرزق في الحياة الدنيا ، يطالب الرسول بأن يقول : أن هذه الطيبات التى يشترك في الاستمتاع بها في الدنيا المؤمن والكافر ، هى خالصة للمؤمنين في الآخرة [2] .

نخرج من هذا إلى أن هذه النعم التى يسمونها بالسعادة الدنيوية هى حط مشترك بين المؤمن والكافر في الدنيا ، ولكنها قاصرة على المؤمن في الآخرة ، ومن هنا نجد الدلالة الأخلاقية في هذه الطبيات من حيث هى للمؤمن في الآخرة لأنها ستكون جزاء أو غاية لعمله الطيب في الدنيا ، أما من حيث هى في الدنيا هى دلالة على فضل الله سبحانه وتعالى على المؤمن والكافر معا ، كما أنها قد تكون في الدنيا أيضا بمثابة الامتحان أو الابتلاء للإنسان ، يوفق فيه إذا ما راعى أمر الله ، أو إذا ما راعى القانون الأخلاقى في الاسلام ، ويخفق إذا ما اقتصرعلى الاستمتاع بتلك المتع وركن إليها ، يقول تعالى : " ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب ..... " [3].

وهنا دليل آخر من القرآن أيضا على ما أنعم الله به على عباده ، ورفع به بعضهم على بعض في الدنيا لم يكن من قبيل السعادة الأخلاقية التى نعنيها غاية للسلوك ، وجزاء على الفضيلة ، بل كان بمثابة الابتلاء والاختبار ، وقد جاء في تفسير هذه الآية ما يزيد الأمر وضوحا ، يقول الطبرى في تفسيرها : أن الله سبحانه وتعالى خالف بين أحوال العباد ،

---

(1) الأعراف : ٣٢ .
(2) تفسير الطبرى : المجلد ١٢ ص ٣٩٨ .
(3) الأنعام : ١٩٥ .

فجعل بعضهم فوق بعض بأن رفع هذا على هذا بما بسط لهذا من الرزق ففضله بما أعطاه من المال والغنى ، على هذا الفقير فيما حوله من أسباب الدنيا ، وهذا على هذا بما أعطاه من الأيد والقوة على هذا الضعيف الواهن القوى فخالف بينهم بأن رفع من درجة هذا على درجة هذا ، وخفض من درجة هذا على درجة هذا " وذلك ليختبرهم فيما خولهم من فضله ومنحهم من رزقه فيعلم المطيع له منهم فيما أمره به ونهاه عنه ، والعاصى ومن المؤدى مما أتاه الحق الذى أمره بأدائه منه والمفرط في آدائه ([1]) .

إذن لم تكن الدنيا بما فيها من طيبات الرزق هدفا في ذاتها ، وهكذا كانت السعادة الدنيوية ، ولكنها كانت كذلك بقدر ما تعين الإنسان على طاعة الله والعمل بالقانون الأخلاقى الذى يقود إلى السعادة الأخلاقية في الحياة الآخرة ، يؤيد هذا ما جاء في " الأربعين النووية " : " عن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله واحبنى الناس ، فقال : ازهد في الدنيا يحبك الله ..... " وجاء في شرح النووى لهذا الحديث أن " الزهد ترك ما لا يحتاج إليه من الدنيا وأن كان حلالا ، والاقتصار على الكفاية .. " كما جاء أيضا في الشرح نفسه تعريفه الدنيا المذمومة طلب الزائد على الكفاية ، أما طلب الكفاية فواجب ... " ([2]) .

ومرة أخرى نخرج من هذا إلى أن الدنيا بما فيها من طيبات ليست هدفا في ذاتها بل هى وسيلة فقط لدوام الحياة ولمواصلة عبادة الله

([1]) تفسير الطبرى – المجلد ١٢ ص ٢٨٨ – ٢٨٩ .

([2]) الأربعين النووية وشرحها للأمام النووى – الرياض سنة ١٣٩٨ هـ ص٦٥ وما بعدها .

، التى يثاب عليها المرء بالسعادة الحقيقية في الآخرة ، ولو لم يكن ذاك لما طولبنا بالزهد فيما هو زائد عن الكفاية منها .

أما الجانب العقلى أو الروحى مما أسموه بالسعادة الدنيوية ، فقد تمثلوه في هداية الله سبحانه وتعالى ، وقد ورد في ذلك عدة آيات ، منها قوله تعالى : " وهديناه النجدين " (١) ، " والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم " (٢) ، " ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم " (٣) إلى آخر ذلك من الآيات العديدة ، التى تربط بين الإيمان والتقوى والاعتصام بالله – وكلها فضائل أخلاقية وبين هداية الله .

وبالتأمل في هذه الآيات نجد أن الله سبحانه وتعالى قد بين للإنسان بكل الطرق – عن طريق الرسل وعن طريق الكتب المنزله – طريق الخير وطريق الشر . بعد ذلك حمله مسئولية أى الطرق يختار ، وبتأمل بقية الآيات نجده يقول : " والذين اهتدوا .... " أى اهتدوا بارادتهم ، واختاروا طريق الهداية ، هؤلاء الفضلاء من الناس سيزيدهم الله هدى ... وكذلك الذى " يعتصم بالله " فقد " هدى " ، أى هداه الله ، ونجد " ومن يؤمن بالله ... " " يهد قلبه " . فكلها أمور تشير إلى الجزاء على الفضيلة ، جزاء على الهداية والاعتصام بالله ، والإيمان بالله ، ولكن ما هو نوع الهداية ، هل هو السعادة في الدنيا ؟ وبالنظر في القرآن نجده يجيبنا على ذلك ، يقول تعالى على لسان أهل الجنة : " وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله " (٤) . ومن ثم كانت الهداية الحقيقية هى الهداية إلى ما يوصل إلى الجنة ... إلى السعادة الحقيقية – وليست السعادة الدنيوية .

---

(١) البلد : ١٠ .
(٢) محمد : ١٧ .
(٣) آل عمران : ١٠١ .
(٤) الأعراف : ٤٣ .

الأمر الآخر الذى يتضمنه الجانب الروحى من السعادة الدنيوية هى الاحساس بالحب : حب الله للعبد ، وحب العبد لله ، وقد ورد هذا أيضا في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، فالله يحب المحسنين والمقسطين والصابرين ، والمتقين ، والتوابين ، والمتطهرين ، والمتوكلين ، والذين يقاتلون في سبيله كأنهم بنيان مرصوص ، وهو مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ... كما أنه سبحانه وتعالى يرضى عن المؤمن . والملاحظ أن حب الله إنما هو للفضلاء من الناس الذين ثبت في مواضع عديدة في القرآن أن الله سيجازيهم بالسعادة في الجنة ، وليس هذا الحب من طرف واحد بل هو كذلك من جانب المؤمنين ، يقول تعالى : " والذين آمنوا أشد حبا لله " (١) .

بل نجد الرسول – صلى الله عليه وسلم – يعلق الاحساس بحلاوة الإيمان على هذا الحب ، فيقول – صلى الله عليه وسلم – : " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار " (٢) .

ويقول الإمام ابن تيمية في هذا المعنى ، أن " جميع ما يحصل للنفس من اللذات والآلام ، من فرح وحزن ونحو ذلك يحصل بالشعور بالمحبوب أو الشعور بالمكروه ، وليس نفس الشعور هو الفرح ولا الحزن ، فحلاوة الايمان المتضمنة من اللذة به والفرح ما يجده المؤمن الواجد حلاوة الايمان ، تتبع كمال محبة العبد لله ، وذلك بثلاثة أمور : تكميل هذه المحبة ، وتفريقها ودفع ضدها فتكميلها أن يكون الله

---

(١) البقرة : ١٦٥ .
(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب ، بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ... وتفريقها أن يحب المرء لا يحبه الا لله ، ودفع ضدها أن يكره ضد الايمان أعظم من كراهته الالقاء في النار " (١) .

وفى مقابل تصوير القرآن الكريم ما أسماه الباحثون بالسعادة الدنيوية حسية ومعنوية نجد أيضا ما اعتمدوا عليه من القرآن من آيات استدلوا بها على ما أسموه بالشقاوة الدنيوية حسية ومعنوية ، استخلصوها مما ساقه القرآن من خلال سرده للقصص التاريخية التى صورت جماعات من الناس كفرت بنعم الله ، وجحدت بها ، وبعبارة أخرى خرجت عن الصراط المستقيم الذى رسمه القانون الالهى ، فكان جزاؤها العقاب المادى الذى صوره في صور عديدة ، وسنضرب لذلك مثلا بما ورد في قصة موسى مع آل عمران ، عندما رفضوا الايمان بما جاء به موسى قائلين : " فما نحن لك بمؤمنين " (٢) فقال تعالى : " فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين " (٣) ، وكذلك لما نكثوا عهدهم مع موسى عليه السلام ، قال تعالى : " فانتقمنا منهم فاغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين " (٤) .

وفي هذه الآيات نجد رفض الايمان وهو رذيلة ، كما نجد النكوث في العهد ، وهو أيضا رذيلة ، يقابلها الجزاء من الله في الدينا ، ممثلا في الطوفان والحشرات الضارة بالانسان ، ثم أخيرا في انهاء الحياة بالاغراق فى البحر ، وهى كلها – كما نرى – ألوان من الشقاء في

---

(١) أنظر : ابن تيمية العبودية ص ١٢٦ .
(٢) الأعراف : ١٣٢ .
(٣) الأعراف : ١٣٣ .
(٤) الأعراف : ١٣٦ .

الدنيا الذى ينال الكفار ، ويستعمله الوعاظ ورجال الدين في ترهيب المؤمنين من أجل المحافظة على الدين والتمسك بما جاء في شريعته . كما أنه يوجد فى القرآن كذلك لون آخر من الشقاء هو الشقاء المتمثل فيما يصيب الناس من ضلال بسبب أعمالهم ، فإذا كان الله يهدى المؤمنين ، فهو لا يهدى الكافرين ، يقول تعالى : " ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم " (١) ، ويقول : ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم " (٢).

ونلاحظ في هاتين الآيتين دلالة معينة تربط بين العمل وما يترتب عليه من مسئولية ، وبين النتيجة ، فيربط الله فيهما بين عدم الايمان أو الكفر وبين عدم هدايته لأصحاب هذا العمل .. فهى نتيجة في الدنيا ، وهى لون من ألوان الشقاء ، ولكن النتيجة الأكبر والأعظم ، هى ما وعدهم الله تعالى به ، جزاء على ما اقترفوه من أعمال سيئة – بسبب عدم هدايتهم وضلالهم في الدنيا – من " العذاب الأليم " و " العذاب العظيم " وموقعه فى النار في الحياة الآخرة .

كما أننا نجد أيضا أن الله سبحانه وتعالى ، إذا كان يحب المؤمنون ويحبه المؤمنون ، وبسبب هذا الحب يتذوقون حلاوة الإيمان في الدنيا ، مما يترتب عليه سعادة المؤمنين في الآخرة ، فهو لا يحب المعتدين (٣) ، ولا الظالمين (٤) ، ولا المسرفين (٥) ، ولا الكافرين (٦) ، ولا

---

(١) ابراهيم : ٢٧ .
(٢) البقرة : ٥ – ٦ .
(٣) البقرة : ١٩٠ .
(٤) آل عمران : ٥٧ .
(٥) الأنعام : ١٤١ .
(٦) آل عمران : ٣٢ .

الخائنين [1] ، ولا المستكبرين [2] ، وهو كذلك سبحانه مخزى الكافرين [3] . ولا شك أنه إذا كان بالحب يتذوق المؤمن حلاوة الإيمان ، فغير المؤمن المحروم من هذا الحب لن يتم له هذا التذوق مما يزيد في اضلاله وارتكابه للآثام التى تؤدى به إلى الشقاء الأعظم في الآخرة.

وإذا كانت الشقاوة في الدنيا بالمعنى الذى ذكرناه قد ارتبطت بالكافرين فإنها أيضا وخاصة بمعناها المادى قد تلحق بالمؤمنين ، وهنا يضيف القرآن دليلا آخر على أن الشقاوة في الدنيا ليست غاية فى ذاتها مرتبطة بالعمل بالفهوم الذى نعتقده في شأن السعادة أو الشقاوة الأخلاقية ، ولكنها قد تكون وسيلة لغاية أخرى ، هى الشقاء الأعظم في النار بالنسبة للكافرين ، وقد تكون نوعا من الابتلاء ، بالنسبة للمؤمنين ، يبتلى به الله سبحانه المؤمنين من أجل التفكير عن سيئة ارتكبوها لادخالهم الجنة في الآخرة ، يقول تعالى ، مخاطبا المؤمنين : " لنبلوكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون " [4] .

فإذا نظرنا إلى هذه الآيات نجد الابتلاء بالخوف والجوع والنقص في المال والأنفس قد يحل في الدنيا بالمؤمنين ، لاختبار مدى إيمانهم بالله ، ومدى صبرهم على هذا الابتلاء ، فاذا ما صبروا فازوا بالهداية كما فازوا بالصلوات والرحمة من الله ، أى فازوا بالسعادة في الآخرة . وفى هذا المعنى جاء قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – " إذا

---

(1) الأنفال : ٥٨ .
(2) النحل : ٢٢ – ٢٣ .
(3) التوبة : ٢ .
(4) البقرة : ١٥٥ – ١٥٨ .

أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة " (١) . وقيل أيضا في هذا المعنى أن المؤمن مركز جزائه ومثوبته هى الآخرة ، فيكفر الله عن سيئاته في الدنيا بابتلائه في الشدة والضيق ، وكلما زادت سيئاته وكثرت معصيته زاد شقاؤه في الدنيا ، يقول النبى – صلى الله عليه وسلم – : أمتى هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة ، عذابها في الدنيا ، الفتن والزلازل والقتل " (٢).

نخرج من هذا كله إلى أن السعادة أو الشقاوة الدنيوية لا تعد غاية في ذاتها ، وإنما الغاية الحقه والسعادة القصوى إنما هى فى السعادة الأخروية على النحو الذى أشرنا إليه من قبل ، يتأكد هذا اعتبارا بعدم كفاية السعادة الدنيوية من وجهة نظر العدالة الالهية ، على أساس عدم شموليتها لجميع الأفعال ، من وجهة نظر القانون الأخلاقى في الاسلام ، حيث أن من الأفعال ما تقع تحت العفو الالهى والمغفرة ، ومنها أيضا ما يحتفظ الله تعالى بالجزاء عليه في الآخرة ، الأمر الذى لا تخرج معه السعادة الدنيوية عن سائر الجزاءات الطبيعية أو الإنسانية – أما الأمر الآخر في الدلالة على عدم كفايتها فيقوم في اختلاط الأمر فيها على النحو الذى بيناه ، فهى تارة تعد نوعا من الابتلاء أو الاختبار للصالحين ، يستهدف منه الامتحان لهم أو التطهير من ذنب اقترفوه ، اعداداً لهم لنيل السعادة الحقة في الآخرة ، وهى تارة أخرى تعد من قبيل الفضل بالنسبة للكافرين والمؤمنين معا ، ولا علاقة لها بسعادة المؤمنين

---

(١) رواه الترمذى ، وكذا في الجامع برواية أنس وعبد الله بن مغفل ، وعمار بن ياسر ، وأبى هريرة ، وعزاهم إلى المخرجين . ورقم له بالصحة .

(٢) رواه أبو داود وأنظر في هذا : محمد زكريا الكاند هلوى ، أسباب سعادة المسلمين وشقائهم في ضوء الكتاب والسنة ط٢٠ ، سنة ١٩٧٢ ص٤٠ .

obeikandl.com

أو شقاوة الكافرين في الحياة الأخرى . ومن ثم فلا يصح النظر إلى السعادة أو الشقاوة في الدنيا على أنها أمر مستقل على حدة ، بل هى من قبيل الابتلاء أو المحرك للجهد من أجل السعادة الأخروية (١) ، التى تؤدى إلى انقلاب وجهة نظر الإنسان المسلم وتحولها تحويلا كاملا بصدد الحياة الدنيا وشئونها ومعاملاتها ، الأمر الذى يجعله لا يحسب كل ما يظهر من نتائج أعماله ، وثمرات أفعاله في هذه الدنيا مقياسا حقيقيا للحسن أو القبح والصواب أو الخطأ ، وميزانا ثابتا للحق والباطل أو الفوز والخسران ، ومن أجل ذلك لا يتوقف اتباع المرء للقانون الأخلاقى أو اعراضه عنه على تلك النتائج (٢) . وبذلك يقل شأن السعادة الدنيوية إلى الحد الذى لا يجعل لها الباحثون قيمة تذكر بالنسبة إلى السعادة الأخروية مستندين في ذلك إلى قوله تعالى : " ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار " (٣) ، ممثلين بذلك الدنيا بالشجرة الخبيثة وللآخرة بالطيبة ، ومن هنا كان النهى عن الدنيا بما فيها من سعادة ، لما تحمله في باطنها من خبث ، يقول تعالى : " ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى " (٤) . ومن أجل ذلك يصبح على المسلم وطبقا للمثل الأعلى في الأخلاق الإسلامية أن يوازن – حفاظا على سلامة القيمة الأخلاقية ، بين تمتعه بالسعادة الدنيوية وبين حرصه

---

(١) أنظر : دكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن ص٢٦١ – ٢٦٢ .
(٢) أنظر : أبو الأعلى المودودى : نظرية الاسلام الخلقية ، ترجمة محمد كاظم سباق ، دمشق سنة ١٩٦٠ ص٦٠ .
(٣) ابراهيم : ٢٤ – ٢٦ .
(٤) طه : ١٣١ ، وأنظر : الراغب الأصفهانى : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص١١ .

على الفوز بالسعادة الأخروية والموفق إذا رأى نفسه قاصرة على الجمع بين الأمرين (السعادتين) اهتم بما يبقى وأقل العناية بما يغنى ، وآثر الحياة الآخرة على الدنيا ، فلا يلتفت إلى الدنيا إلا بقدر ما يتبلغ به إلى الآخرة [1] . ومن أجل ذلك فقط ربط السلف الصالح في هدوء وتقوى ، ودون تشاؤم أو يأس بين الحياة الدنيا بما فيها ، وبين نهايتها التى تتمثل في الموت ، الذى تتلاشى معه جميع السعادات الدنيوية ، مؤكدين أن هذا هو موقف الإنسان العاقل ، وكل موقف دون ذلك بعيد عن الاتصاف بالعقلانية في السلوك [2] . الأمر الذى ينبغى معه على العاقل أن يلتزم بذكر الموت على الأوقات كلها ... لأنه خير موجز لحال الدنيا بما فيها من سعادات . ودنيا أو سعادة هذه حالها لا يغتر المؤمن ولا يركن إلى ما فيها [3] بل يكون تعلقه باستمرار بما هو أبقى وأدوم ، ذلك الذى يتمثل في السعادة الأخروية ، لا فيما يطلق عليه السعادة الدنيوية .

الوسيلة إلى السعادة :

إذا كنا قد انتهينا فيما سبق إلى أن السعادة الحقيقية كما حددها الكتاب والسنة هى " السعادة الأخروية " المتمثلة في الجنة ، فما هى الوسيلة أو السبيل إلى ذلك ؟ ونعتقد أننا نستطيع أن نعرف الإجابة على هذا إذا ما عرفنا من هم الذين سيدخلون الجنة . وفى هذا نجد القرآن الكريم يربط في آيات عديدة بين الإيمان وعمل الصالحات وبين دخول الجنة ، يقول تعالى : " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار " [4] . ويعنى هذا كما يقول الطبرى أن

---

(1) الراغب الأصفهانى : تفصيل النشأتين ، وتحصيل السعادتين ، حلب (بدون تاريخ) ص٦١ – ٦٢ .

(2) البستى (أبو حاتم محمد بن حبان) : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، الحلبى ، مصر سنة ١٩٥٥ م ص٢٥٩ .

(3) المصدر السابق ص ٢٦٢ .

(4) البقرة : ٢٥ .

الله سبحانه وتعالى قد أمر نبيه محمدا – صلى الله عليه وسلم – بابلاغ بشارته خلقه الذين آمنوا به وبمحمد – صلى الله عليه وسلم – وبما جاء به من عند ربه ، وصدقوا ايمانهم ذلك واقراراهم بأعمالهم الصالحة ، فقال له يا محمد بشر من صدقك أنك رسولى ، وأن ما جئت به من الهدى والنور فمن عندى ، وحقق تصديقه ذلك قولا بأداء الصالح من الأعمال التى افترضتها عليه وأوجبتها في كتابى على لسانك ، عليه أن له جنات تجرى من تحتها الأنهار خاصة ، دون من كذب بك ، وأنكر ما جئته به من الهدى من عندى ، وعاندك ودون من أظهر تصديقك أن ما جئته به فمن عندى قولا ، وجحده اعتقادا ، ولم يحققه عملا ، فإن لأولئك النار التى وقودها الناس والحجارة معدة عندى " (١) .

وهذا يعنى أن الطريق الموصلة إلى السعادة تقوم على أمرين : أولهما يتعلق بالتصديق والآخر يتعلق بالتطبيق . أما ما يتعلق بالتصديق فهو ما وضحه نبى الإسلام من خلال " حديث الإيمان " عندما سأله جبريل ما الإيمان ؟ فقال – صلى الله عليه وسلم – : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره " (٢) . وأما ما يتعلق بالتطبيق فهو كمال الايمان ، لأن الايمان هو " ما وقر في القلب " وهو ما سمى بالتصديق " وما صدقه العمل " وهو ما سمى بالتطبيق ، أى ما صدقنا به ، في سلوكنا وعملنا ، أى العمل وفقا لما أمرنا الله به وما نهانا عنه في كتبه وعلى لسان رسله ، وطبقا لما تمليه علينا عقيدتنا باليوم الآخر ، وهو ما سمى في القرآن بـ " الصالحات " (٣) ، ومن أجل ذلك فسرها المفسرون المفسرون بأنها " كل ما استقام بدليل العقل

---

(١) الطبرى : التفسير طبع المعارف بمصر ، المجلد الأول ص ٣٨٣ – ٣٨٤ .
(٢) الأربعين النووية ، وشرحها للنووى ص ١٤ .
(٣) الكشاف – المجلد الأول ص ٢٥٥ .

obeikandl.com

والكتاب والسنة " وفسرها البعض الآخر بأنها طاعة الله وإقامة حدوده ، وأداء فرائضه واجتناب محارمه [1] ، ولا خلاف بين التفسرين .

والصالحات بهذا المعنى تنطوى على نوعين من الأعمال : النوع الأول منها يقوم على أداء أعمال خالصة مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج ، أو ما يسمى بالعبادات وهى تلك التى تحدد علاقة الإنسان بالله سبحانه وتعالى من حيث القيام بعبادته امتثالا لقوله تعالى :" ما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون " [2] ، وفى هذا المقام نشير إلى أنه لا فضل في الاسلام بين العبادات وبين القيم الأخلاقية المؤدية إلى الفوز بالسعادة ، فإن العبادات الإسلامية في حقيقتها تنتهى إلى تأكيد القيم الخلقية ، فالصلاة والصوم والحج وما إلى ذلك لا تصح عند الله ما لم تنه عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وكل متأمل في الأديان لابد أن يلاحظ أن الفرائض الدينية التى شرعها الاسلام ذات وشائج قوية تربطها بالمبادئ الأخلاقية التى تحقق كرامة الانسان [3] .

وقد أورد ابن قيم الجوزية من أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – ما يؤيد الارتباط بين الصوم وما يترتب عليه من سلوك أخلاقى ، من نحو قوله – صلى الله عليه وسلم – : " من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل ، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه " وقوله : " رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش " [4] . وذلك يذكرنا بجانب آخر من جوانب الايمان الذى يحمل نفس السمة – سمة الارتباط بين التصديق والعمل – ألا وهو الايمان بالحياة الآخرة ، وأن السعادة الحقيقية أو

---

(1) تفسير الطبرى – المجلد الثانى ص ٢٨٧ .
(2) الذرايات / ٥٦ .
(3) دكتور عثمان أمين : الجوانية – أصول عقيدة وفلسفة ثورة ، دار القلم ، القاهرة سنة ١٩٦٤ ص١٩٠ .
(4) أنظر : ابن قيم الجوية ، كتاب الوابل الصيب من الكلم الطيب – مجموعة الحديث ، الرياض ، سنة ١٣٨٩ هـ ص ٦٤٧ .

الشقاوة الحقيقية إنما تكون في الآخرة وليس في الدنيا ، هذا التصور أو هذا الاعتقاد إنما يقلب وجهة نظر الإنسان ، ويحوله تحويلا بصدد الحياة الدنيا وشئونها ومعاملاتها ، ويجعله لا يحسب كل ما يظهر من نتائج أعماله وثمرات أفعاله في هذه الدنيا مقياسا حقيقيا للحسن والقبح ، والصحة والخطأ ، ومن هذا يستفيد أمرين في غاية الأهمية ، وهو في سبيله إلى السعادة ، أحدهما ثبات المبادئ الأخلاقية ، وثانيهما أنه يتأتى لسلوكه الخلقى قرار وتمكن لا يخشى عليه من الميل ، ما دام هو ثابتا في الدين وقلبه مطمئن بالايمان ، بالإضافة إلى تحرير روح الإنسان من عدم الاكتراث بالغاية أو بالمصير ، والركون إلى ما هو زائل في الدنيا ، ولهذا ينبغى على المسلم أن يضع منهجه في هذه الحياة على أساس أن الغاية ليست هنا ولكنها هناك فهى السعادة الأخروية ، لا اللذات الدنيوية ، وأنه لا سبيل إلى الظفر بها إلا بالتحرر من روح عدم الاكتراث بالمصير ، تلك الروح الفاسدة التى سادت في هذه الأيام حتى إذا ما استيقظ ضميره وأحس بأن الأمر خطير بل في غاية الخطورة كان عليه بعد ذلك أن يدرك في وضوح تام أن نزعة اللادينية السائدة شر من نزعة الاستهتار ، فالسلوك الانسانى أمر يجب أن يمليه الدين يسيطر عليه الايمان ... يجب أن يستمد من كتاب الله وسنة رسوله ، فلا سبيل إلى النجاة في الآخرة والفوز فيها إلا بالرجوع إلى الدين كدستور للحياة ، وأخذه بقوة ، وتنفيذ ما يتضمنه من فروض وواجبات ([1]) .

أما النوع الآخر من الأعمال الذى تتضمنه " الصالحات " غير الأعمال التعبدية ، فهو تلك الأعمال التى يتضمنها سلوك الإنسان تجاه نفسه وتجاه الآخرين ، ليصل به إلى الفوز بالسعادة ، ويتضمن ذلك

([1]) ابراهيم اللبان : المسلم ، حياته وايمانه ، نشر لجنة البيان العربى مصر سنة ١٩٦٧ ص ١٠٢ – ١٠٣ .

المجال على سبيل المثال لا الحصر ، الانفاق من المال الخاص على الغير من الفقراء والمساكين ، يقول تعالى : " والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم " (١) ، كما يتضمن التحلى بالعفة يقول تعالى : " والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت إيمانهم فإنهم غير ملومين " (٢) وكذلك التحلى بالأمانة والوفاء ، يقول عز وجل : " والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون " (٣) ، ومنه الحرص على قول الحق وتجنب قول الزور ، وعدم كتمان الشهادة ، يقول عز وجل : " والذين بشهاداتهم قائمون " (٤) ومنه التحلى بالصبر والعفو ، يقول تعالى : " والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار " (٥) . وكذا الإحسان إلى الوالدين ، والتحلى بفضيلتى الشكر والتوبة ، يقول تعالى : " ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ، حملته أمه ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا . حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ، قال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن اعمل صالحا ترضاه ، وأصلح لى فى ذريتى انى تبت إليك وإنى من المسلمين ، أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذى كانوا يوعدون " (٦).

---

(١) المعارج / ٢٤ .
(٢) المعارج / ٢٨ – ٢٩ .
(٣) المعارج ٣١ .
(٤) المعارج / ٣٢ .
(٥) الرعد / ٢٢ – ٢٤ .
(٦) الأحقاف / ١٥ – ١٦ .
Ch. Toshihiko izutsu : The structure of the Ethical terms in the Koran , P. 103 – 107 .

obeikandl.com

هذه نماذج من الفضائل العملية التى إذا ما تحلى بها الإنسان المسلم بالإضافة إلى إيمانه وتصديقه فاز بالجنة التى هى السعادة الحقيقة في الآخرة .

درجات السعادة :

هل هناك درجات للسعادة في الكتاب والسنة أم هو لون واحد ودرجة واحدة من السعادة ، من فاز بها فقد فاز بالسعادة كلها بحيث لا يوجد فرق بين سعيد وسعيد ؟ هذا ما سنحاول البحث عن إجابة له في هذه الفقرة . إذا كنا قد انتهينا إلى أن السعادة الحقيقية في الكتاب والسنة هى السعادة الأخروية ، فإننا لم ننكر أيضا أن في الدنيا أمر أخر سماه الباحثون في الأخلاق الإسلامية بالسعادة ، ولكنهم أجمعوا على أنها سعادة فانية وزائلة في مقابل السعادة الحقيقية التى هى في الفوز بالجنة في الآخرة ، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك إلى أن ما أسموه بالسعادة في الحياة الدنيا ، كان كذلك فقط على سبيل المجاز ، أو على أساس أنه موصل إلى السعادة الحقيقية ، يقول الغزالى : " اعلم أن السعادة الحقيقية هى الأخروية ، وما عداها سميت سعادة إما مجازا أو غلطا كالسعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة ، وأما صدقا ولكن الاسم على الأخروية أصدق ، وذلك كل ما يوصل إلى السعادة الأخروية ويعين عليه . فإن الموصل إلى الخير والسعادة قد يسمى خيرا وسعادة " (١) ومن ثم نستطيع أن نقول بأنه يوجد درجتان من السعادة ، أيا كانت ماهية كل منهما ، إحداهما آدنى من الأخرى ، هما السعادة الدنيوية وهى الأدنى ، والسعادة الأخروية وهى الأعلى والأقصى .

وفى إطار هاتين الدرجتين ، إذا صح تسميتهما كذلك أشار القرآن إلى درجات يفرق بها بين حظ البشر من كل منهما . فعن السعادة

---

(١) الغزالى : ميزان العمل ص ٩٠ – ٩١ .

الدنيوية ، يقول تعالى : " ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ... " (١) ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين نصيب كل إنسان في هذه الدنيا ، من سائر أنواع الرزق ، فجعل هذا غنيا وذاك فقيرا ، وكذا من السلطان والعزة والقوة ، فجعل هذا قويا عزيزا ، وذاك ضعيفا ذليلا ، هذا على الرغم مما نص عليه في الآية من أن كل هذا لا يعد غاية في ذاته ، بل قد يكون أحيانا نوعا من الابتلاء يختبر فيه الإنسان ، قد يكون الفقير أو الذليل هو الفائز بالسعادة الحقيقية في الآخرة ، لعدم قيام الغنى أو القوى في الدنيا بأداء حق الله في ذلك ، واستخدامه فيما يفيد نفسه وغيره من الناس ، الأمر الذى يكون فيه المال مثلا مجلبا للشقاوة الأخروية . أما بالنسبة للسعادة الأخروية فيشير القرآن إلى ما يعتبر الدرجة العليا من السعادة مما يستنتج معه وجود درجات للسعادة في الآخرة ، فعن الدرجة القصوى من درجات السعادة الأخروية يقول تعالى : " قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد " (٢) ، وإلى مثل هذا أشار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما رواه الإمام البخارى " (٣) .

وإذا كان قد تأكد بالكتاب والسنة وجود درجة عظمى من السعادة الأخروية ، هى رضوان الله سبحانه وتعالى ، فإن القرآن يفاضل أيضا بين درجات السعداء ، دون أن يشير إلى هذه الدرجة العظمى من السعادة . يقول تعالى : " وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض ، لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ،

---

(١) الأنعام / ١٦٥ .
(٢) آل عمران / ١٠ .
(٣) أنظر : صحيح البخارى ، باب كلام الرب مع أهل الجنة جـ ٩ من طبعة الشعب ، القاهرة ، ص١٨٤ – ١٨٥ .

أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير " (١) . والله يشير بذلك إلى " التفاوت بين المنفقين ... قبل فتح مكة ... قبل عز الاسلام وقوة أهله ودخول الناس في دين الله أفواجا ، وقلة الحاجة إلى القتال والنفقة فيه ، ومن أنفق من بعد الفتح .. أولئك الذين انفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، الذين قال فيهم النبى – صلى الله عليه وسلم – : " لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " .. وكل من الفريقين قد وعده الله بالمثونة الحسنى ، وهى الجنة مع تفاوت الدرجات (٢) . كما ورد أيضا وفى موضع آخر ، تفضيل الله سبحانه وتعالى – في درجات الجنة – المؤمنين الذين يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم على المؤمنين الذين لا تتاح لهم فرصة هذا الجهاد من أولى الضرر ، مع وعده لكل منهما بالمثوبة بالجنة لايمانه ، وذلك لفضل المؤمن المجاهد على المؤمن الذى لا يتمكن من الجهاد (٣) .

ونخرج من هذا كله إلى أن هناك درجات السعداء أو السعادة في الجنة ، وإن كنا لم نستطع تحديد ماهية هذه الدرجات تحديدا دقيقا يبين حدود كل درجة وذلك لقصور علمنا بماهية الجنة والنار ، أو بماهية السعادة الأخروية .

حكم وتقدير :

وبعد ... فإن الحديث عن السعادة والشقاوة في الأخلاق الإسلامية بصورها المختلفة في الدنيا والآخرة – كما رأيناها في الكتاب والسنة – يدعونا أن نقف وقفة تحليلية لهذا كله ، فنقول : أنه

---

(١) الحديد / ١٠ .
(٢) الزمخشرى : الكشاف – المجلد الرابع ص ٦٢ .
(٣) أنظر : النساء / ٩٥ ، وتفسير الطبرى – ط المعارف المجلد / ٩ ص ٩٥ .

إذا كانت فلسفة الأخلاق غير الإسلامية تدور دائما حول تصوير المثل الأعلى فقط فهى بذلك تقصر ادراكه على الصفوة الممتازة من البشر الذين حباهم الله بفطرة فائقة تمكنهم من ادراك هذا المثل الأعلى ، أو حتى من الاقتراب منه مما يترتب عليه اهمال من هم دون ذلك . أما الأخلاق الإسلامية فقد عنيت بالبشر جميعا ، وبالتالى وسعت من مفهوم المثل الأعلى بحيث شمل الناس جميعا . كل فى امكانه أن يدرك جانبا منه بحسب قدرته وامكانياته التى فطره الله عليها . ومن أجل ذلك واعتبارا بأولئك – من البشر – الذين ليس لهم قدر كبير من الفطرة الفائقة عبر الاسلام عن السعادة بكلمة " الجزاء " ، بل أكثر من هذا ربط الحديث عن السعادة بالحديث عن " العقاب " أو " الشقاوة " . وقد يتبادر إلى الذهن أن السعادة في الأخلاق الإسلامية على هذا النحو قد تحولت إلى غاية أخلاقية على النحو الذى نجده عند النفعيين ، ونحن قد أثبتنا من قبل أنها مجرد مضمون للواجب في الأخلاق الإسلامية ، كما أنه قد يتبادر إلى الذهن أيضا التساؤل عن أهمية " العقاب " ونحن بصدد الحديث عن السعادة ؟ .

ولعل في التأكيد على اهتمام الاسلام بالقيمة الأخلاقية في ذاتها حتى من خلال تناوله الحديث عن السعادة والعقاب بالصورة التى أثارت هذه التساؤلات ما يجيب على ذلك ، ففى الأخلاق الإسلامية حيث عدم الفصل بين الدين والأخلاق كما هو شأن الفلسفات الأخرى ، توجه الأمر إلى الناس جميعا على مختلف قدراتهم وامكانياتهم وحظهم من الفطرة السليمة ، ومن هنا وجدنا الأخلاق الإسلامية لم تقتصر على تصوير السعادة الأخلاقية فقط متمثلة في " رضوان الله تعالى " بل نجدها قد اهتمت بما هو دون ذلك من سعادات ، ولعل الحكمة في ذلك تقوم في محاولتها الارتقاء دائما بالإنسان ، حسب امكانياته ، من درجة إلى

التى تليها في الرقى ، إلى أن تصل به إلى أفضلها ، كل بالأسلوب والطريقة التى تناسبه وتتفق مع ادراكاته ومقومات شخصيته .

وللهدف نفسه واعتدادا بالقيمة الأخلاقية في ذاتها كان الحديث عن العقاب ، ادراكا من المشرع أنه إذا كان الرجاء في السعادة من شأنه أن يدعو الإنسان إلى الارتقاء والتحلى بالفضيلة ، فإن الخشية من العقاب أيضا من الممكن أن تؤدى إلى نفس الهدف ، وهو الابتعاد عن الرذيلة ، والاقتراب من الفضيلة ، والارتقاء بالنفس الانسانية ، يقول الإمام على فى صفة المتقين : " ... نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتى نزلت في الرخاء ، لولا الأجل الذى كتب الله لهم ، لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين ، شوقا إلى الثواب وخوفا من العقاب ، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم ، فهم والجنة كمن قد رآها فيها متنعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون " (١) . كما أن الإمام ابن تيمية قد ذهب في بيان المعنى نفسه إلى أن سلوك الإنسان يقوم على أمرين العمل والإرادة ، والارادة تأتى مصحوبة إما بالحب أو بالكراهية ، أو بعبارة أخرى مصحوبة بالرجاء أو بالخوف ، ومن الممكن مع توفر الإرادة مصحوبة بأى من الأمرين أن يصل الإنسان إلى نفس العمل . وبالنسبة لتصور عمل الخير ، وهو المؤدى إلى السعادة على أنه يقوم في طاعة الله فإن الارادة المصحوبة بالحب أو الرجاء في السعادة تقود صاحبها إلى طاعة الله ، والارادة المصحوبة بالخوف أو البغض للشقاء أو العقاب تقود صاحبها إلى عدم معصية الله . وبذلك تكون النتيجة واحدة ، كلاهما تقود إلى الحفاظ على القيمة الأخلاقية ، وبالتالى إلى ما فيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة ، وفى ذلك يقول

---

(١) الطبرى (الفضل بن الحسن بن الفضل) ، مكارم الأخلاق ، الحلبى بمصر سنة ١٣١١ ص١٦٥ .

ابن تيمية : " فالعبد لا يتصور أن يتحرك قط إلا عن حب أو بغض وارادة " ، ولهذا قال النبى – صلى الله عليه وسلم - : " أصدق الأسماء حارث وهمام .. فكل انسان له حرث وهو العمل وله وهم ، وهو أصل الارادة ، ولكن تارة يقوم بالقلب من محبة الله ما يدعوه إلى طاعته ، ومن اجلاله والحياء منه ما ينهاه عن معصيته ، كما قال عمر رضى الله عنه : نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه ، أى هو لم يعصه ولو لم يخفه ، فكيف إذا خافه ، فإن اجلاله واكرامه لله يمنعه من معصيته . فالراجى الخائف إذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه والتنعم بتجليه له فمعلوم أن هذا من توابع محبته له ، فالمحبة هى التى أوجبت محبة التجلى والخوف من الاحتجاب " (١) .

وبالإضافة إلى ذلك فنحن إذا تأملنا عرض القرآن لمسألة العقاب في الاسلام لوجدناه – أى العقاب – قد جاء متناسبا في الشدة من حيث قسوته مع نوع الجريمة ، أو مع مدى اهدارها للقيمة الأخلاقية.

ومن هنا يتضح اعتداد الاسلام بالقيمة الأخلاقية أساسا ، وترتيبا على ذلك يكون العقاب ، ودوره الأساسى هو محاولة تنبيه الإنسان إلى مدى الجرم الذى ارتكبه ، وبالتالى دعوته إلى عدم تكراره ، وردع الآخرين ، بتنفيذ العقوبة على المجرم ، عن طريق لفت أنظارهم إلى مدى أثر الجريمة على اهدار القيمة الأخلاقية ، وبمقدار هذا الأثر ومقدار القيمة الأخلاقية التى يلحق بها وما قابل ذلك من جزاء كان سلم القيم في الأخلاق الإسلامية ... الذى نضرب له مثلا بثلاث منها مرتبة من أعلى إلى أدنى ، أولهما جريمة الزنا ، وما تلحقه من أثر على الشرف كقيمة أخلاقية ، ومن هنا كان عقاب الزانى أو الزانية " المحصن " هو

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام أمد بن تيمية – المجلد العاشر (علم السلوك) ص٦٣ – ٦٤ ، طبع الرياض ١٣٨٢ هـ .

الرجم [1] ، وهى عقوبة لا رحمة فيها ، أما ثانيهما فهى جريمة السرقة وهى اعتداء على قيمة حق الملكية للغير ، وهى أقل من الأولى ، ومن هنا كان العقاب عليها متناسبا معها ، وهو قطع الأيدى [2] ، أما ثالثهما فهى جريمة القتل ، وهى جريمة ضد حق النفس في الحياة ، ووزنها يأتى بعد الزنا والسرقة ، ومن ثم كانت عقوبتها أقل قسوة ، حيث تتدرج بين القصاص والدية أو الفدية والعفو [3] " وبهذا يتضح جليا أنه ليس للعقوبة في الاسلام قيمة في ذاتها ، بل هى وسيلة للتنبيه إلى ما قد يضير القيمة الأخلاقية [4] . واعتبارا باختلاف تحديد النظرة الإسلامية للقيم واستمدادها اياها من العقيدة ، كان اختلاف القوانين الأخلاقية ونوع الجزاء الذى تقرره على الأعمال التى تهدر هذه القيم ، عن موقف القوانين والفلسفات غير الإسلامية . ولنأخذ مثالا على ذلك من نظرة الشعوب غير الإسلامية إلى جريمة الزنا ، وصلتها بالقيم الأخلاقية ، حيث نرى فيما ورد عنها من عقوبات أن الزانية لا توقع عليها عقوبة إذا زنت برضاها ولم تكن متزوجة ، أو كانت متزوجة ولم يرفع زوجها الدعوى عليها ، أو رفعها ولم تسمع منه ، أو سمعت منه ولكنه أوقف الاجراءات ، كما أن الزانى لا يعاقب إذا زنى بأمرأة غير متزوجة برضاها أو متزوجة ولكن زوجها لم يرفع الدعوى أو رفعها ولم تسمع منه ... وإذا زنى الزوج خارج منزل الزوجية فلا عقوبة عليه [5] . وواضح من هذا أن هذه القوانين قد انعكست عن مجتمعات فقدت الاحساس بالقيمة الأخلاقية . التى رأى الاسلام أنها تهدر بارتكاب الزنا ، ذلك

---

(1) النور / ٢ – ٣ .
(2) المائدة / ٣٨ – ٣٩ .
(3) البقرة / ١٧٨ – ١٧٩ .
(4) أنظر : دكتور دراز ، دستور الأخلاق في القرآن ص ٣٩٩ .
(5) أنظر نص هذه المواد من قانون العقوبات في : دكتور على عبد الواحد وافى : الاسلام في المجتمع العربى ، نشر مكتبة المنار بالكويت ، ص ٣ – ٨ .

obeikandl.com

الاحساس الذى لم يفتقده مجتمعنا الاسلامى بعد ، على الرغم مما هو مدون فى قوانينه الوضعية المستوردة ، والبعيدة عن أساس أخلاقياتنا المستمدة من تراثنا وعقيدتنا اسلامية .

obeikandl.com